بسم الله الرحمن الرحيم

أم المؤمنين صفية بنت حيي بن أخطب التي عنها قال الحافظ أبو نعيم في كتابه حلية الأولياء: [ومنهن التقية الذاكرة ذات العين الباكية صفية الصافية زوجة النبي صلى الله عليه وسلم]، من ذرية نبي الله هارون، كانت رضي الله عنها شريفة عاقلة ذات حسب وجمال، ودين وتقوى، وكان من منة الله على نبيه عليه الصلاة والسلام يقول: ((إنَّ اللهَ اختارَني واختارَ لي أَصحابي)) فمن باب أولى أن يختار له زوجاته، فتولى الله بذاته تطهير أهل بيته عليه الصلاة والسلام قال تعالى:{إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً}[سورة الأحزاب الآية: 33].

بعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم الى المدينة المنورة، ذهب اليه حيي بن أخطب وهو من أحبار اليهود وسيد بني النضير وكان من أعلم اليهود بدينهم، كما كان من أشد مقاتليهم، وذهب معه شقيقه أبو ياسر، وطلبا منه النظر بين كتفيه ليريا [خاتم النبوة]، (وهي وحمة تشبه الزيتونة موجودة في أجسام كل الأنبياء، يخرج منها ثلاث شعرات، وتقع عند الفقرة الأولى من العمود الفقري)، ولما رأيا الخاتم سألاه عدة أسئلة فأجابهما، رجع حيي بن أخطب وهو محتار، فسأله أخوه: أهو هو؟ (يقصد الموجود في التوراة)، قال: هو هو (أي هذا هو النبي المذكور في التوراة)، قال: فماذا تنوي؟ قال: عداوته ما بقيت!!

ولما دخلت السنة السابعة تهيأ النبي صلى الله عليه وسلم لمعركة حاسمة، تقطع دابر المكر اليهودي في أرض الحجاز، الذي كشف لثامه في معركة الخندق.

ففي معركة الخندق اتضح أن اليهود خائنون يكيدون للنبي عليه الصلاة والسلام، فقد نقض اليهود عهدهم، وجاء أهل الشرك في الجزيرة، يحيطون بالمدينة، ليستأصلوا شأفة الإسلام، وكانت معركة الخندق معركة حياة أو موت ، وجود أو عدم وجود، والله سبحانه وتعالى نصر النبي عليه الصلاة والسلام، وانكشفت نوايا اليهود.

خرج النبي صلى الله عليه وسلم في النصف الثاني من المحرم إلى خيبر، وهي مدينة كبيرة، ذات حصون ومزارع وقلاع، تقع على بعد (153 كم) شمال المدينة المنورة، من أكبر مدن الحجاز، ومن أشدها حصانة،

وقوة، وكان مع النبي صلى الله عليه وسلم ألف وأربعمائة مقاتل، فلما أشرف النبي صلى الله عليه وسلم على خيبر قال لأصحابه: قفوا، وكان عليه الصلاة والسلام إذا غزا قوماً لم يغز حتى يصبح، فلما أصبح رآه عمّال خيبر، وقد خرجوا يقصدون مزارعهم، فلما رأوه صاحوا:محمد والخميس، ثم ولوا هاربين، فقال عليه الصلاة والسلام: ((الله أكبر خربت خيبر، إنّا إذا نزلنا بساحة قوم، فساء صباح المنذرين)).

ثم بدأ النبي عليه الصلاة والسلام، يفتح خيبر وحصونها واحدًا تلو الآخر، حتى جيء بسبايا الحصن، وكان فيهم صفية بنت حيي، ومعها ابنة عم لها، جاء بهما بلال رضي الله عنه، فمرّ بهما على قتلى يهود الحصن، فلما رأتهم ابنة عم صفية، ضربت وجهها، وصاحت وحثت التراب على وجهها، فقال عليه الصلاة والسلام لبلال: ((أنزعت الرحمة من قلبك حين تمر بالمرأتين على قتلاهما؟)).

فتزوج عليه الصلاة والسلام صفية سنة سبع من الهجرة، وكان عمرها سبع عشرة سنة، وكان زوجها قبل سبيها كِنَانَةُ بنُ الرَّبيع بنِ أَبِي الحُقَيْقِ النضيري، فَقُتِلَ كِنَانَةُ يَوْم خَيْبَرَ عَنْهَا، وَسُبِيَتْ، وَصَارَتْ فِي سَهْمِ دِحْيَةَ الكَلْبِيِّ، إلا أنه تنازل عنها لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ولدتْ رضي الله عنها بعد البعثة بثلاثة أعوام بين قومها يهود خيبر.

و أسلمت بعد زواجها من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ذلك أنها كانت من سبايا خيبر، وقد جعل مهرها عتقها، تزوجها عليه الصلاة والسلام راغبة مختارة، ولم يكرهها على الإسلام، أقامت مدة على دينها ثم أعلنت إسلامها ففرح النبي صلى الله عليه وسلم بها، وفي حديث أنس رضي الله عنه:((أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أخذ صفية بنت حيي قال لها: هل لك فيّ؟ قالت: يا رسول الله! قد كنت أتمنى ذلك في الشرك، فكيف إذا أمكنني الله منه في الإسلام؟))، وعَنْ أَنَسٍ أيضاً:((أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْتَقَ صَفِيَّةَ، وَجَعَلَ عِتْقَهَا صَدَاقَهَا)).

كانت صفية بنت زعيم اليهود، رأت في المنام أن القمر وقع في حجرها، فذكرت ذلك لأمها، فلطمت وجهها، وقالت: إنك لتمدين عنقك إلى أن تكوني عند ملك العرب، فلم يزل الأثر على وجهها، حتى أُتي بها إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فلما سألها عنه أخبرته، فكبرت في نفسه صلى الله عليه وسلم حين سمع منها هذه البشارة التي زفها الله إليها.

ثم خرج النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن صالحهم على أن يبقوا للزراعة في خيبر، فسار مسافة وأراد أن يدخل عليها فامتنعت وأبت عليه، فوجد في نفسه، فلما كان بالصهباء، وهو على بعد ما يقارب (20 كم) من خيبر، نزل بها هناك ودخل صلى الله عليه وسلم عليها، فلما أصبحت سألها ((ما حملك على الامتناع من النزول أولاً؟ فقالت: خشيت عليك من قرب اليهود))، فزادها ذلك عنده منزلة ومكانة.

ولما وصلوا المدينة استقبل القوم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه بالترحاب والإكرام، وأُنزلت صفية في بيت الحارث بن نعمان، فسمع نساء الأنصار، فجئن ينظرن إلى جمالها، وجاءت عائشة متنقبة، فلما خرجت خرج النبي صلى الله عليه وسلم على أثرها، فقال لها: كيف رأيت يا عائشة؟ قالت : رأيت يهودية، فقال صلى الله عليه وسلم: ((لا تقول ذلك، فإنها أسلمت، وحسن إسلامها)). ومرة بلغها عن حفصة وعائشة كلام، فذكرت ذلك للنبي عليه الصلاة والسلام، يعني آلمها قول حفصة وعائشة فيها، فقال عليه الصلاة والسلام:((ألا قلت لهما: وكيف تكونان خيراً مني، وزوجي محمد، وأبي هارون، وعمي موسى؟ فنزل قول النبي عليه الصلاة والسلام برداً وسلاماً على قلبها))، وفي رواية بلغ صفية أن حفصة قالت لها: بنت يهودي، فبكت، فدخل عليها النبي صلى الله عليه وسلم، وهي تبكي، فقال: ما شأنك؟ قالت: قالت لي حفصة: إنك بنت يهودي، فقال لها النبي عليه الصلاة والسلام: إنك لبنت نبي، وإن عمك لنبي، وإنك لتحتَ نبي ، فبم تفخر عليك؟ ثم قال: اتق الله يا حفصة)).

فائدة: عدم تعير المسلم بماضيه لو تاب وأناب فلينظر بحاضره لا ماضيه فهدا هو هدي محمد فها هو لما جاءه عكرمة مسلماً وجه أصحابه الكرام فقال: جاءكم عكرمة مسلماً، فإياكم أن تسبوا أباه، فإن سب الميت يؤذي الحي، ولا يبلغه.

فالمؤمن يقرب ولا يبعد، لا يحمر الوجوه، لا يحرج الناس، في شخص عنده رغبة في إحراج الناس، دائماً يذكرهم بعمل أخطأوا فيه سابقاً، سيدنا عمر جاءه رجل، وقال: يا أمير المؤمنين إن أختي وقعت في معصية، وأقيم عليها الحد، وجاء الآن من يخطبها أفأذكر ذلك لمن خطبها؟ قال له: والله لو ذكرته لقتلتك، إذا تاب الإنسان من شيء ينبغي أن تطوى صفحة.

وكان لها من رسول الله صلى الله عليه وسلم رعاية خاصة، حيث يشعر بغربة صفية ، يعني بقية نساؤه قرشيات بين قومهن، أما هي فغريبة، ولأنها غريبة، فلها معاملة خاصة، ولها عطف خاص، ولها رعاية خاصة، وهذا أيضاً من حسن السياسة، ومن الحكمة في التعامل .

اجتمع نساء النبي صلى الله عليه وسلم في مرضه الذي توفي فيه، فقالت صفية بنت حيي: إني والله يا رسول الله! لوددت أن الذي بك بي، فغمزن أزواجه ببصرهن، فقال عليه الصلاة والسلام: مضمضنّ، -أي اغسلن أفواهكن- فقلنا: من أي شيء؟ فقال عليه الصلاة والسلام: من تغامزكن، وإنها والله لصادقة)).

فأعظم بها من شهادة لها من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وروى أبو نعيم أن نفراً اجتمعوا في حجرة صفية بنت حيي زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكروا الله، وتلوا القرآن، وسجدوا، فنادتهم صفية رضي الله عنها: هذا السجود، وتلاوة القرآن، فأين البكاء؟ أين الخشوع؟

روي أن جارية لها أتت عمر، فقالت:إن صفية تحب السبت، وتصل اليهود، فبعث إليها عمر، فسألها عن ذلك، فقالت: أما السبت فإني لم أحبه منذ أبدلني الله به الجمعة، وأما اليهود فإن لي فيهم رحماً، فأنا أصلها، فلم يجب عمر، ثم قالت للجارية: ما حملك على ذلك؟ قالت: الشيطان، فقالت: اذهبي فأنت حرة. يعني أرادت أن توغر صدر عمر عليها، وهي بهذا تتخلق بخلق النبي صلى الله عليه وسلم، الذي كان يعفو عمن ظلمه، ويحسن إلى من أساء إليه تُوُفِّيَتْ سَنَةَ خَمْسِيْنَ، وقيل: توفيت سنة اثنتين وخمسين، وَقَبْرُهَا بِالبَقِيْعِ.

أيها الإخوة، الحقيقة: أن رواية هذه البطولات عن الصحابيات الجليلات، وفي مقدمتهن زوجات النبي صلى الله عليه وسلم يعلمن الشيء الكثير، يعلمنا أن المرأة كالرجل، يمكن أن تحقق بطولة، ويمكن أن تكون في أعلى مرتبة عند الله عز وجل، وأن أي نظرة إلى المرأة، توهم أنها دون الرجل، وأن مجالها البيت والطبخ والأشياء التي يفعلها النساء عادة هذه نظرة جاهلية للمرأة.....

والحمد لله رب العالمين